

"أنطولوجيا زجل الإغتراب اللبناني" لجوزف أبي ضاهر

شعراء صرخوا حنينهم الى الوطن على هدير بحر الغربية

نافذة أخرى على تاريخ لبنان، لا التاريخ الذي ما زلنا ندرسه ونبحث عن صفحاته الناقصة في كل ولادة جديدة له، بل تاريخ قيل وكتب بلغة الزجل، حين كان يشتد الحنين إلى الوطن، إلى القرية، ويعبق القلب بالشجن، فتغدو الرسائل قوافي تحملها البحار أمانة إلى الذاكرة البعيدة، أو تبتلعها فتطويها أمواج النسيان بين صفحاتها. الشاعر جوزف أبي ضاهر، بغيرته على هذا الشعر الذي به رسم حدود لبنان المشتتة، أهدى من عمره أولاً سنوات في بحث دؤوب عن أعلام الزجل اللبناني، صدر في خمسة مؤلفات أعادت شعلة الضوء إلى شاعر الوادي أيوب ثابت، وشحرور الوادي أسعد الفغالي، والخوري لويس الفغالي والده، وأمير الزجل رشيد نخلة، والياس الفران. وها هو بصدور "أنطولوجيا زجل الإغتراب اللبناني" عن منشورات جامعة سيدة اللويزة، يشرع حدود لبنان الواسعة لا على أطماع جيرانه بل على البحر وأفاقه، حيث ولد شعر من مذاق آخر، له طعم الغربية والشوق، وقرصة الحنين إلى كل حبة تراب.

قلمه الشعري كحفيف ورق الشجر حين تلتقطه الأرض، يسمع قارئه وقع الزمن وهروبه، فيغدو الحنين نغماً من منجيرة لجوجة، أنفاسها تحرق وجدان ابن هذه الأرض، المرصودة للدم كما للأبدان، للموت كما للقيامة. من العام 1900 إلى العام 2000، هو المحج الذي مشى جوزف أبي ضاهر على دروبه، ليتعمّد في قدس أقداس زجل الإغتراب. من هذه الملحمة التي تكلم عنها في الصفحات الأولى من الكتاب، يصل إلى صلب بحثه عن الزجل فيقول: "من أصول لبنانية، بدأ الزجل مع الصوت والنغم فالحرف والكلمة وحلّ التعبير لغة حياة مع ما في الحياة من تناقضات تبدأ من الولادة وتصل إلى الموت وما بعده."

التاريخ مديد تحت قلم هذا الشاعر الذي يأتي أن يكون لوطنه لبنان مذاق آخر سوى الشعر. تبدأ هذه الوليمة الداخلة بالأسماء والأزمنة، في القرن الرابع، محطة مهمة يقول، ظهرت فيها أناشيد مار إفرام السرياني وميامره، فأثرت في أرجال الناس وأضفت عليها من أوزانها وألوانها ما استمر في الزجل اللبناني وميّزه عن باقي الأرجال التي عرفتها غير دولة، لا سيما أرجال الأندلس التي تدين بنهضتها لأبي بكر بن قزمان الذي عرف بإمام الزجالين في القرن الثاني عشر وشهرته بالموشحات.

القرن الثالث عشر وراء الباب. يذكر الباحث أن جبل لبنان لم يغيّر لغته الأرامية ثم السريانية إلا تدريجاً. في تلك المرحلة برز عدد من رجال الإكليروس، كتبوا الزجل وأرخوا به لأحداث تاريخية مهمة. في مقدم الزجالين سليمان الأشلحي الذي تناول في زجلية من ستين بيتاً خراب مدينة طرابلس وأخذها عنوة بيد الإفرنج. بعد الأشلحي والقلاعي جاء سرجيس السمار الجبيلي الذي هاجر إلى قبرص وكتب زجلية تناول فيها فتح المسلمين للجزيرة في القرن السادس عشر.

وتتابع الزجليات من القس عيسى الهزار والبطريرك يوسف العاقوري إلى القس الياس الغزيري، وغيرهم من رجال الكهنوت الذين تناولت أرجالهم دراسات حفظت في المكتبة الفاتيكانية وبعض الأديرة في لبنان.

كان حضور زجل الإغتراب على ما يروي أبي ضاهر، متواضعاً وبسيطاً. استُخدم كالحمام الزاجل، رسولا حمل تحت جناحيه "مكاتيب الشوق"، لكن مع السنين "شاب الرسول وجف حبر اللهفة". لم يزدهر شعر الزجل في عالم الإغتراب أكثر من نصف قرن. لكن بعد مبايعة رشيد نخلة أميراً للزجل اللبناني، زمن الرئيس شارل دباس، وبعد مبايعة الأمير خلافته لشحرور الوادي، حمل أسعد الفغالي المنبر الزجلي إلى خارج حدود لبنان، تحديداً إلى مصر برفقة أنيس روحانا وعلي الحاج، وأحيوا حفلات في الأوبرا الملكية وفي منزل أم كلثوم. وكانت إنطلاقة ثانية للزجل المنبري في الأربعينات مع جوقة كروان الوادي إلى الولايات المتحدة. وفي النصف الثاني من الأربعينات، تمّت مبايعة مؤسس الرابطة الرباعية الزجلية أسعد حرب في الولايات المتحدة، أميراً للزجل اللبناني في أميركا. وكانت مبايعة المنتخب الفني برئاسة طانيوس حملاوي، أميراً على الزجل اللبناني في البرازيل.

يقول الكتاب: "إن ما نهله من زجل الإغتراب هو أكثر بكثير من الذي وصل إلينا أو عرفناه تواتراً أو مرويات أو ما نشر ولحقت به أخطاء الطباعة". في فقرة أخرى يطالعنا جوزف أبي ضاهر بأحاسيسه فيقول: "في زجل الإغتراب وشم وجد وتفوق بعد عاطفي لمعنى الوطن يضاف إلى البعد الكياني. في الغربية شعور بالإتصال الناقص مع التراب، شعور بالإنفصال الجسدي والتعويض عنه بالإندماج الروحي."

في هذا العمل الواسع بأبحاثه، المتعمق في تربة الوطن للكشف عن رفات رجال أحيوا الوطن بشعرهم، نستمتع إلى واضع هذه الأنطولوجيا يقول: "ما جمعت من السفر والهجرة، ما هو سوى صورة، مرات احسستها نافرة ومرات باهتة، ففي كم من الشعر نبحث عنه ولا نجد له نرى أن الشعر اختفى تحت ثنانيا العاطفة. وفي مكان آخر يطل زجل

الإغتراب، راقيا، متوهجا، أسلوبيا وسكبا."
الكتاب تاريخ يروي سيرة رجال عبّروا بالشعر وحكوه أمنيات وخيبات وحباً وبعاداً وشوقاً. أكثر من مئة وخمسة
وعشرين شاعر زجل، اقتفى جوزف أبي ضاهر آثارهم ووضعهم تحت عين المجهر مع قصائدهم والأزمة التي
انتموا إليها، وفي اطلعنا على كل شاعر نسرع إلى قصيدته التي بالوزن والقافية المرتجلة حيناً المدونة حيناً آخر،
تهدهد الوطن وتؤكد له ديمومته.

مي منسى

Annahar 02/15/2011